

عن الرجل والنملة

بعيون فاعرة فاها رحنا نراقب الباب وهو بالعصية الشديدة يفتح
والكتلة البشرية تدفع من خلاله لا تتيبها إلا حين فقط تستقر في ركن
الزنزانة الفارغ . حتى السباب المعتاد الذي كان لا بد يصاحب الفتح
والإغلاق والتكويم ، من فرط الدهشة ، لم تتيبه إذ قد حل الصمت
لا نجرؤ على قطعه مخافة أن يجد جديد وأن يكون وراء البداية ما
وراءها .

بتغامق الظلام في العادة بعد التمام . الخامسة بالضبط موعده .
الترلاء صامتون لمقدمه إذ المفروض أن يحل الصمت ليتمكن حراس
الليل من التغير مع حراس النهار ويتمكن شاويش النهار من تسليم
شاويش الليل ، صمت يسيء للصراخ أن يتعالى إذا حدث الخطأ
وأقلت نزيل من الإحصاء وارتيك العدد . الباشاويش هو المخطيء
ولكن الشاتم تنهر فوق رأس النزلاء ، وثمة جرى ، وصوت

الكوالين الحديد وأبواب أخرى تنهد حتى لتكاد تدك الحائط
الحجري ، وأخيرا ، بجيء ، بجيء الأزيز النهابى لمفصلات باب العنبر
الكبير ، وتختف الأصوات مع الأقدام مبتعدة ، وتجل الصمت .
ويستمر . للتأكد أنهم جميعا ذهبوا ، وأن النهار المتعب انتهى . ثم ،
وكأنما فجأة ، تنفجر من الصدور الزعقات والقهقهات والشنائم
مكونة مولد المغربية المعتاد .

السكوت فى النهار طوال النهار أحد الأوامر المتعارف عليها
الصارمة ، الألسن تنهش فى الأهواء لقله ما تتحرك ، الحناجر
مخشوشة من فرط السكوت ، فقط حين تذهب قوة النهار ويترك
العنبر فى حراسة ثلاثة حراس ليل عواجير فى الغالب ، قريبي الإحالة
إلى المعاش ، فقط حين يطمئن الجميع إلى ذهاب الجميع بفرح كل
نزىل عن لسانه ويبحث الحياة فى شفيه وقمه وصدره ، ويزعق ،
ويشتم ، بكل ما يملك من قدرة وقوة بصرخ ويشتم وكأنما ينتقم من
السكوت وأوامر الشاوشية ويزاول الغريزة التى طال حبسها ،
غريزة أن يشتم ويشتم . فمن فرط ما يتلقى النزىل من شنائم طوال النهار
وهو عنها ساكت وبالأمر متسامح تتكون له فعلا غريزة الشتم تنهال بها
كل زلزلة على الأخرى ويتبارى فى مزاولتها الجميع ، بعض وحلق

وابتكار ، لأسماء الأم وجسدها بخلق ألف تعبير وتعبير .

في أحيان قليلة جدا يحدث ، أن فجأة ، يدور المفاتيح في قفل
الباب الكبير ويفتح العنبر ، وهنا ، وفي لحظة لحاطفة واحدة يتسمر كل
شيء في مكانه ويحل أعمق وأعرب صمت .. صمت الترقب
لرهب لما عساه يكون السبب في فتح الباب .
وتتعدد الأسباب وتكثر ، وذات مرة نجد السبب باب زترانك
نفسه وهو الروعك يفتح وكتلة بشرية ما ، تتدلق ، ليعود الباب
يتدلق . قبل أن نسأل أنت القادم أو يفتح هو من تلقاء نفسه فما
للكلام تنهمر مئات الأسئلة من قريب ومن بعيد ومن أقصى الدور
الثالث نفسه تتساءل عن حكاية هذا الذي دخل ، فلا تدخل بعد
الانحسام إلا حكاية مهولة ، لا يد في الحال أن تعرف ، وهكذا إن لم تبادر
وتحجب ، حتى قبل أن تعرف أنت ما هي الإجابة ، تنهمر عليك أنت
الشكائم هذه المرة وتؤرق عظام أمك وأبيك وأعضاءهما أحياء كانوا أم
أمواتا . فقص حباة وهيبة يتولى فيه أناس حبس أناس ويحق أناس
ويضرب أناس وحشدهم وتكديسهم هكفا في علب مبركة من
الزنازين والحجرات .
.. ما بك يا عم .. حور ..

سمعت أنا و حمزة السيولى .. زميلى فى الزنزانة الذى تصادف أن
اسمه يشبه اسم قائد السجن الحرقى حيث تم كل ألوان التعذيب ،
تشابه كان يجعله وبالتالى يجعلنى هدفا لتعليقات ونخرات وتعذيب لا
حد لها .

— مالك يا عم مالك ..

قالها حمزة هذه المرة ، بأمل أن يجيب القادم . ومكوما فى الركن
لا يتحرك كان لا يزال . الأسئلة تترى تخترق باب الزنزانة المصنوع
من قضبان متوازية من حديد ، لا إجابة ، والنتيجة سيول من الشتم
تلغى وتلغى حمزة . ما أغرب قدرة الإنسان على تعذيب نفسه
وتعذيب الآخرين إذا وقع عليه عذاب لا يملك منعه . معذبون يعذبون
معذبين . ما أبأسه من محبس داخل محبس وعذاب فى قلب عذاب .
لا رد ولا تحرك ولا كان باديا عليه أنه سيرد . أياكون ما نسمعه منه
ليس تنفسا عميقا ، إن هو إلا نسيج ومكاء ، بكاء الصامتين لا حول
ولا قوة ، وجدنا أنفسنا تقرب من الرجل تحيط به مشفقين . أيدينا
تطبطب عليه ونستخرج كثرنا الثمين ، الشمعة الوحيدة التى تملكها
وندعرجها للحظات الحاجة القصوى ، أشعلناها . بضوئها الذى بدا
ناهرا ، ممدت يدي ورقعتها من الكف إلى الرأس أعدله وأرى

الوجه .

كدنا نموت أنا و حمزة رعبا فكلانا طيب و نعرف ماذا تعنيه تلك
الصفرة المتكاثرة المشاحية التي لوت الوجه . الخدقات الواسعة
المفتوحة وهي تمن النظر في الفراغ وفي الاشياء . ما لم نلبه مات .
اتلنا عليه بالأسئلة نستفسر إن كان قد ضرب وأين ضرب وأي مكان
من جسده يؤلم أكثر . قلنا النبض و عددنا مرات التنفس . الصدمة
فعلا واضحة ولكن لا أدرى لأي إصابة في الجسد كانت الصدمة ،
لا جرح ، لا خدش ، لا بطن متفوخ ، لا شيء .

وتفينا للمعاينة المعقودة مع الحارس الليلى ساومناه على كوب
القهوة . أصر على عشر سجائر ونحن لا نملك إلا علبة . وافقناه على
مضغ كثير . أخيرا أصبح في يد الرجل كوب قهوة معجز المذاق في
تلك اللحظة ، وسيجارة (وينجر) بأكملها ، وعلى ضوء الشمعة
دماء قليلة بدأت تسري في الوجه الحراب ، همهمة ، ثممة ، نهدات
الكل يختلط بالكل والكلمات بالأصوات والإشارات ورفض أن
يفصح .

نلح بكل ما نملك من طاقة إلحاح ، والرفض البادى على هيئة
صمت هو وحده الجواب . تشاورنا أنا و حمزة ، نركه ؟ نخطف

الوطأة عنه ؟ ترك كل شيء ، للمصباح ؟ ولكن حب الاستطلاع فيها
لا يمكننا نحن أنفسنا مقاومته ، والإلحاح ، إلحاحنا وإلحاح بقية
الحجرات والرنازين كلما احتسى الرجل بصمته ، وتداخلت رغبته
في الإقصاء كما يتداخل حيوان القواقع إلى عمق القواقع كلما شعر
بلمسة الأصبع . وبكل نعومة رحن نداءه ، ثم ، فجأة ، تركناه ..
تركناه ..

حتى كاد يغلبا النوم . وكل الألسنة المطالبة في الخارج قد
سكنت .

— هل سأموت ؟
رفع الرأس فجأة بالسؤال وكأنها إجابة متأخرة جدا عن قولنا له :
نحن أطباء ، لا نخف . فضضضض حتى تشرق ولا تخف ، فنحن نريد
مصلحتك ، نحن أطباء .

— هل سأموت ؟
ودون أن تتلق ، لم نجيب . رحن فقط تنظر إليه ولا نجيب فما كنا
نريد تطمينه حتى لا يشوب إلى سكوته وفي نفس الوقت لم تكن نريد
إزعاجه حتى لا يتمسك بموقفه .
فجأة وجدت حمزة يتنجر فيه غاضبا مؤنبا إياه على هذا الموقف

الطفولي الذي لا معنى له بالمرّة . معتقل سياسي . ألت كذلك .
كان واضحا من نهاية المدية أن ليس مسجوننا . إذن لماذا هذا التثبيت
بالصمت . أعترف هو على نفسه ، وماذا يمكن أن يحدث له أسوأ من
هذا الذي حدث والذي جاءوا به إلى هنا بسببه وعلى تلك الحال
القريبة من صدمة الموت .

فعلا .. معنى ح يكون جرى لك إليه ؟
بعمق نفس وتهد وقال ببطء ونظراته تعود تنغمس في الفراغ :
— أوحش شيء على ظهر الأرض .
وكدنا نبتسم في رثاء .. ماذا يمكن أن يكون قد حدث ؟
عاد يقول :

— أوحش شيء على الأرض . حدث لي ما لم يحدث للبشر .
ومرة أخرى استخفنا بكلامه .. وكدنا نقهقه . سبعة عشر
شهرا ونحن في هذه الزنزانة معا . سجن مصر محطة يتوقف القادمون
من السجن الحرى في طريقهم لظرو وأبو زعبل والواحسات ،
والقادمون من تلك الليمانات في طريقهم للمستشفى أو للإفراج أو
لعذاب آخر في السجن الحرى . ولرد وصادر وحركة دائية جعلتنا
نصادف كل ما يمكن أن يخطر على البال من هم ومتهمين

ومعتقلين وأسباب اعتقال ، وتعذيب ، ومهذرين . النفع والضرب
وكي نصف البطن الأسفل وهتك الأعراض وكل شيء ، ولم تنق
وسيلة لم نعرفها أو يأتي لها ذكر . وكل منهم .. مثل هذا القادم ..
يعتقد أنه الوحيد الذي حدث له هذا أو مارسوا معه ذاك .
ماذا يمكن أن يكون قد وقع له ؟

— أوحش شيء على ظهر الأرض .

— ماذا مثلا ؟

— أوحش شيء على ظهر الأرض . نيموني مع غلّة ..

وانفجرنا ضاحكين .

قطعا هو لا يبدو مختل العقل وإن كان واضحا أنه في طريقه
لاختلال عقله . وبوجه جاد صارم يحمل كل ما في هذا العالم من ندم
يقولها . نام مع غلّة . وانفجرنا ضاحكين .

والى الصباح التالي ظللنا نضحك . ونذكر ملاحمه وهو ينطقها
فصناب معدتنا بالمفص من فرط ما نتعنى ونضحك .

وعلى رأى كليله ودمعة قلنا له في الصباح التالي — وكان تقريبا لا
يزال على نفس جلسته وقرصته وانكماشه على نفسه . وكيف كان
قلت يا أستاذ .

لم يكن تبدو عليه سماء المعتقلين السياسيين . معظمهم كانوا
متقنين . حليقي المحبة والشارب ، خريجي أو طلبة جامعات . هذا
كان له شارب ، أصفر ونحير ومتهدل على شفته العليا يكاد يلامس
السفلى . وجهه نحش لآبد من كثرة مزاوالت عمله بخارج المكاتب
والمنازل حيث الريح والتراب ولفح الشمس . في الحقيقة لم نقابحاً
حين قال لنا أنه عمدة . حين تستخرجه من الحالة التي كان عليها ،
والسكينة التي آلت إليها ملاحه وقوامه ، وتفردده ، وتوقفه ، وسيرته
الأولى ويتبدى لك على حقيقته نجد أنه حقاً وصدقاً لآبد كان واحداً
من أولئك العمدة من طراز : الحرس يا ولد . شهم كريم ، يذبح
لضيف خروفاً إذا طلب الطعام ، ويسافر إلى آخر الدنيا ثلثة لنداء
مستغيث . عمدة ومعتقل سياسي . جديدة جداً هذه المرة . والنكته
أن يكون شيوعي مثلاً ومن منظمة (ح . م) المغالية في شيوعيتها
واتهامها لكل الشيوعيين الآخرين أنهم عملاء للبوليس السياسي .
الأقرب للمعتقل أن يكون واحداً من أعضاء الهيئة الوفدية فليس
هناك عمد في تنظيم الإخوان المسلمين ، ولكن ، لا تعجب أبداً إذا
اتضح في النهاية أنه مار كسي يؤمن بالمادية التاريخية وربما قد قرأ رأس
المال والليبية .

في الليلة التالية ساءت حالته وارتفعت درجة حرارته وأصبح
لبعض ١٤٠ ، وبدأ وارم الوجه بحسنى السحنة وكأنه سيفجر بعد
قليل ، لم يكن يكف عن إمعان النظر إمعان النظر في الفراغ وفي
الاشياء ، ما لم تنبه مات ، انهلنا عليه بالأسئلة له إن كان حقيقة قد
فعل ما وصفه بأنه أوحش ما في الدنيا .

وتكلم ..

منقطع الأنفاس .

أخرج من صديريه البلدى الداخلى عليه سجاثر (كرافن أ)
عشرين سيجارة كاملة ، وعزم علينا ولم تصدق أنفسنا ونحن ننت
دخان الكرافن وكل ما نملك وما أصبح لنا من طول بال نصبر على
كلماته التي تخرج بعد عناء ، وهاته بين الكلمات .
تكلم ..

بدأها من منتصفها ، أو من حيث بدأ بهم هو بها ، لا نعرف ،
قال : هذا الوغد ، يونس بحرى . قلنى . بالأمس فعلا قلنى ،
وسأمت ، ولكنى لن أموت قبل أن أخرج من أسنانى في زورره وأهضم
حجرته ابن الأبنه هذا .

جالسين وفي أمان الله وبعد يوم شاق من تكسير البازلت وحمله في

— اُمدم .

قال :

— اُمنع هدومك ..

— نعم ..

تـ حمل کرباج و رُمبہ حمل شدہ

رہت ہدی مسلما قال :

— حاضر پ یہ اُمنع ہدی می

و کی نزدیک نظر ت حوی بر کی حق تصویر مکتوب

حصہ و ہا کہیں میں صورت نہ کہ کج و بے حر

فی دائرة واسعة و عیہ ہدف حویہ سے من عت کر جمہور اُمنعہ

اُمنعہ بیکہ کدہ نو پ ، قریب سے ۔ بہ طرفہ صبر تحمل

ہر ، ت و کر بیج و سبب و اُخریہ و اُصلاب حدیدیہ

، فہ ، حدی و ہوس حوی منع علی کرمیہ اُمامی و لا ہر

منہی منہی منہی و ۔ کت کا عت و قرار ت و اُحد

لاست لہد مدد ہدی اُخری و اُصلاب اُمنع حدی ، و اُصلاب

حدیدی و سطرہ مرہ و صغہ صغہ و سغہ من ملامتی و اُصلاب

نہدہ غریب کہ ویدی می

— قلعت هندو ملٹ .

— زی ما انت شایف یا بیہ ..

— حب () سمہ ی فی ہدک دی

حل یں فی حقیقہ لم أسمع ، و کیف أسمع ، و ما صدق لا يمكن أن

لا من عقل محو ، و حتی لمحوں صدقہ یحییٰ أن بقده

—

الکرم اح مرعوع فوق رُسی و السوت بنہا للامصاص ، و من

حر ی حملت بصرانہ الناریہ علی ہیبتہ الأمر الیدی أمر ، و الدب ،

وسور العساكر حامی مدافع ، و الخدسور ، و المارک و العس

، الحصر و الظریف ، و کل منیء مکث و صحت و نامر مسحتی أن

ألی .

بعض لفلاح الخبث الیدی یطلب خوف احد ان یجب وقت

محتاج :

— ہی دی ذکر یا بیہ ..

لم یصححت ، و لا أحد من عربین أو العبدین صححت ، کحل

صراقة قال روح هات واحده ساه

و کادی بومہ سوم بھطیبی سدرت و فصدت کومہ

تو به من خبر ده که چه خبر است

— جمع — لا یند صریح .. ونا اُعرف اُنت من جوع

محمد بن علی بن یزید بن عبد الله بن محمد بن علی بن ابی طالب

تلا ملة ايتدائي هؤلاء ..

۱۔ حجر میں بغیر قلوب ہیں جس بشیر فقد کمال نہ حصہ فیہ۔

لا يحضر أحد من عشرة، معاً في جسد، في جسد

پیشہ خدمت میں بطور تصویر کی کالکٹ کیے میں عورتوں اور بچوں کو حجامہ لے

عن أبي عبد الله عليه السلام أني سألت عن رجل يفتقر إلى ما يفتقر إليه من الناس من غير أن يكون له من ذلك شيء فقال لا بأس به ما دام لا يفتقر إلى ما يفتقر إليه من الناس من غير أن يكون له من ذلك شيء

يسمى صريحة الواحد منهم ..

حَرْبٌ وَأَعْيُ نَقْلٌ ، وَسَمْعٌ لِسَى لِي قَدَحِي نَحْوَهُ أَيْ يَصْدُقُ

پوچھو : خود پر جس کا کہہ دےں لی تمہارے لئے ، مراداً کہ لی غنیمت

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

مِنْهُمُ مَن يَخُصُّ بِدِينِهِ مَعْرُومٌ

مجلس میں روح و پلہ و جلی سے مراد کیا ہے ؟

146

والذي جاء في نسخة علي بن حواري بن زياد بن عبد الله بن

مستعينا بالله من هذا الهول الذي لا أعرفه :

— إزاي بس يا بيه .. أنا في عرضك .. إزاي ..

— زى الناس ..

هكذا قالها ..

— زى الناس إزاي ..

— زى الناس يا بن ال .. ويا بن ال .. ماذا تفعل الناس ؟

ولكنها تفعلها مع الناس والإناث الكبار ، وهذه ثلثة ..

— ولو .. اعتبرها ناس .. اعتبرها إناث ..

— حاضر ..

فأفرا الفلاح الخبيث إلى نجدتى مرة أخرى قلت :

— حاضر يا بيه ..

وعملت ألى فعلا أول ما أمرنى به .. وأنا ، زبادة في الاندماج ،

قد رسمت على وجهى ابتسامة سعادة ، استيقظت منها على صوت

نبوت يشرخ ، يشرخ الهواء . ويشرخ ظهرا من ظهور (التلامذة)

إلى جوارى . التفت على الصريحة ، أنة صاعدة من عظام الأقدام

لكائن حتى إنسان صغير يتألم ١٩ . انفجر قلبي وتدفق منه الدم القائر

غصة ولوعة .

— لا تثل يا ابن الكلب .. اندمج .. أتضحك على .. اندمج ..
انت نحال الآن ملايك وهذه أنتى ، ثملة مش ثملة لا بهم .. هذه
أنتى .. اندمج .. وسأراقب وجهك وملاحك .. وأقسم برحمة أمى
إن لم أترك تفعل ما قلته سأشرح تلاميذك وأنت وكلكم معا ، وأنت
تعرف وكلكم تعرفوننى ..

وكان واضحا من وجهه المثقب بالجديرى القديم أنه لا يهزل ،
حاولت أن أجده فرجة احتمال أو عشر احتمال للتهاون فلم أجده هذا
إنسان مجنون وقد تفحصت حساسية المجانين للحقيقة ولن يصدق
غيرها ولن أستطيع أبدا خداعه وعلى أن أفعلها . حاولت ولكنى فى
منتصف المسافة استدركت وعطيت منه العذر .

وجمعت نفسى وبأقصى ما أستطيع من قدرة على أمر النفس
أمرتها . أحسست أن شهيا كشهب الجنون تتراءى لعينى ، ومن
فرط الانضغاط بدأ العقل فى محيى يقطع . مجنون أمر ، وأمر
مجنون ، ولا بد أن أستجيب ، ومجنونا لابد ، لكى أستجيب ، أن
أصبح . أنا فعلا رجل ضخم ، وهذه ثملة ، وبكل كيانى على أن
أصغر نفسى وأستحيل من إنسان إلى حشرة ، وعلى أن أحس وأعيش
تماما كأنى ذكر ثملة ، تستمر فى أنشأى أنشئ الثملة ، وأنام معها . وكلما

فشلت ، كلما توقفت ، كلما غام وعيى بالشهد وباستحالة
التحول .. وأحسست التهديد يحوم كغريبان الين حول التلامذة
الصغار وحول الطابور الصاغر الصاغر ويكسوني العرق وتطفئ
عظامي وتشدشدش دون أن تصبح كفى في حجم ساق الحمل لا يكاد
يرى ولا بد أن أهوى بوعي وبإرادتي على كفى وكفى ولحسي
وعظمي ورأسي وبطني وعنفي وأدق وأصغر كي أستحيل ذكر
نملة ، أفرز هرمونات ، وأجعلها بالقوة القاهرة تستجيب لهرمونات
أشأى القابعة مستسلمة ، في يدي . هكذا . رأيتها ، بألف عين دقيقة
لي تكونت ، قد استجابت ، وكفت عن الحركة ، واسترخت
واضطجعت . لو كانوا قد عذبوني وقطعت الجبل كله ، لو ربطوني
إلى ذيل حصان جرى في القطر كله من أقصاه إلى أقصاه ، ألف
جلدة ، لو فعلوا ما هو أكثر وأكثر لما أحسست بربع معشار ما مر على
من عذاب حتى أفلتت الزمام ولم أعد أستطيع الكف وجسدي يمضي
بتصاغر ليصبح نملة ويستمر نملة ويعيش ويحب ويذاول الحب نملة ..
وعند لحظة النهاية فقدت الوعي ..

قالوا لي إنهم حملوني حملا إلى اليمين .
وأنهم خافوا من صراحي أثناء الليل واستجار الزملاء من عظمي

وتمزيق ملابسهم وملابسى ، وحملوني إلى مستشفى سجن مصر ،
ومن هناك إلى هنا .. وهمس لى التومرجى الأسمر العجوز وأنا فى
الطريق إليكم أنهم يفكرون فى الإفراج الصحى عني .. ولو ما
الفائدة ، وقد تمت مع المحلة واعترفت ، وكان الذى كان ..
ولأن لا أشع فى سجن المتظرين المحاكمة من كلمة اعتراف ،
فقد وقفنا على أطراف تحفرنا أنا وحمزة ونحن نسأله بماذا اعترف ولماذا
اعترف .

قال وهو يشيح يده :
وأنا وسط العذاب ، فى منتصف المسافة بين كوفى بشرا وكوفى
ذكر لم انكسرت إرادتى ولم أحتمل ، وقلت كل ما عندي بأمل أن
يتوقف أمر يونس بحرى وأن يكف العذاب ، ورغم الاعتراف لم
يوقف المحرم الأمر ، وحتى لو كان أوقفه فأنا نفسى كنت غير قادر
لحفظها أن أوقف عذاب التحول ، إرادة أن أكون بشرا أغلست
وحسرت لى إرادة محلة لا تقوى أبدا على كتمان .

ورغم إعادته إلى المستشفى فقد سمعنا أن حرارته ظلت ٤١ طول
الليل ، ورغم جسده اللين الضخم . فى الصباح التالى مات .